٣٠٤١٤

# المورد

مجلة تراثية فصلية . تصدرها وزارة الاعلام - الجمهورية العراقية - المجلد الرابع — العدد الاول ١٣٩٥ — ١٩٧٥

# النزعة الدينية في كتاب الحيوان للجاحظ(١)

بقلم

احمد خطاب التكريتي

ابو عثمان عمرو بن بحر من قدماء مفكرينا وكتابنا ، خلف كتباً عديدة في مختلف فنون المعرفة، وهو في كل ما كتب مفكر واسع المعرفة ، عميق التفكير ، دقيق التعبير ، استطاع بأسلوبه الذي تفرد به ، أن يلفت انظار كثير من الناس الى ما يكتبه . وتمكن من ان يشد القراء الذين افتتنوا بالحضارة الفارسية واليونانية ، فأخذوا بما جاءتهم به من ادب جديد وقصص وعلوم وفلسفة ، فردهم الى العربية ، وحبب اليهم آدابها وعلومها ، فعادوا الى كتبه ينهلون منها ، ويتسابقون في دراستها، ويتناقشون بما يقرأون ، فتكونت منهم نتيجة هذا جماعة ، متقاربة التفكير ، موحدة الآراء ، يدافعون عنها ويتعصبون لها ، هي خلاصة أفكار الجاحظ فكانت فرقة الجاحظية من المعتزلة .

استطاع رحمه الله ان يوصل آراءه الى قلوب الناس بطريقته الخاصة ، فكان يخلط الجد بالهزل والحكمة بالطرفة ليشد الناس الى كتابته ، وقد اشار الى غايته تلك في تصديره الكتاب قال : « فان مللت الكتاب واستثقلت القراءة ، فانت حينئذ اعذر ولحظ نفسك ابخس وما عندي لك من الحيلة الا ان اصوره لك في احسن صورة واقلبك منه في الفنون المختلفة » (ج ٥ ص ١٥٥) ، ولهذا وصف كتابه بقوله : « ويشتهيه الفتيان كما تشتهيه الشيوخ ويشتهيه الفاتك كما يشتهيه الناسك ويشتهيه اللاعب ذو اللهو كما يشتهيه المجد ذو الحزم ويشتهيه الغفل كما يشتهيه الاديب ويشتهيه الغبي كما يشتهيه الفطن » (ج١ ص ١١).

وهكذا كان مع قارئه في هذا الكتاب خاصة ، وهدفه من ذلك هو ان يكسب رضاه ويشده اليه، وعن طريقه استطاع ان يلج الى قلوبهم ويدعوهم الى هدفه الاسمى من الكتاب ، الا وهو التفكير في خلق الله تعالى ـ الهدف الذي وضع الكتاب بسببه ـ الى جانب اهتمامه باللغة العربية ـ وهو الهدف الثاني من الكتاب ـ وسنعزز ما نذهب اليه بما سنتعرضه من اسباب ، منها :

١ ـ اختار هذه المخلوقات مادة لبحثه ليدخل من خلالها الى الغرض الحقيقي منه وقد اشار الاستاذ عبدالسلام هارون محقق الكتاب الى ذلك حينما اشار الى تناول الجاحظ مباديء المعتزلة ، قال : « ان البحث في شان الحيوان ضرب من ضروب التعبد ولون من الوان البحوث الدينية التي تنتهي بصاحبها الى معرفة عظمة الله وعظم ما ابدع وتبرا » ( المقدمة ج١ ص ٢٣) وللدكتور طه الحاجري تعليل آخر فقد ذهب الى انه من الطبيعي ان يتجه الجاحظ الى الحيوان بعد ان تناول الانسان في كتبه كثيرا ... لما للمنزلة الدينية والصلة التي كانت للحيوان في نفوس الناس فالبقرة لها مكانتها في المعتقدات الفارسية ، والبعير والفيل والكلب والديكة والكبش والطاووس ليتخذها مادة يناقش من ورائها الخلاف بين النزعة العربية الشعوبية . ( كتاب الجاحظ ص ٣٩٧ وما بعدها ) .

والجاحظ لم يخص صنفاً معيناً من هذه المخلوقات بل تكلم عليها : صغيرها وكبيرها ، وتناول حياتها وعاداتها وطرق تكاثرها وكيفية تفاهمها وتجمعها ، بما اجراه هو بنفسه وما اجراه غيره عليها من تجارب ولاحظه من ملاحظات ، ليري الانسان من ذلك قدرة الله في خلقه هذه المخلوقات وتعليمه اياها تنظيم حياتها هذا التنظيم الدقيق الذي يفوق تنظيم الانسان حياته ، مع فقدانها العقل ، وليدل دلالة واضحة على عجز الانسان عن استطاعته الاحاطة ببعض حياة هذه الكائنات ، وهي جزء صغير بالنسبة لحياته ، ولما يحيطه في هذا الكون الواسع ، وليخرج من ذلك الى القول بعظمة خالقها ، قال : « الا ترى ان الجبل ليس بادل على الله تعالى من الحصاة وليس الطاووس المستحسن بادل على الله تعالى من الخنزير المستقبح ، والنار

---

(١) النسخة المعتمدة هي الطبعة الثانية ـ مصطفى البابي الحلبي

والثلج وان اختلفا في جهة البرودة والسخونة فانهما لم يختلفا في جهة البرهان والدلالة (ج١ ص ٢٠٦)، ويؤكد هذا الهدف حينما يستعرض استطاعة الحيوان والطير ما يعجز عنه الانسان قال : « وسخر حناجرها له من ضروب النغم الموزون والاصوات الملحنة والمخارج الشجية والاغاني المطربة ؛ فقد يقال ان جميع أصواتها معدّلة وموزونة موقعة ، ثم الذي سهل لها من الرفق العجيب في الصفة مما ذلله الله تعالى لمناقيرها واكفها ، وكيف فتح لها من باب المعرفة على قدر ما هيأ لها من الآلة ، وكيف أعطى كثيرا منها من الحس اللطيف والصنعة البديعة من غير تأديب وتثقيف ومن غير تقويم وتلقين ، ومن غير تدريج وتمرين ، فبلغت بغوصها وبمقدار قوي فطرتها من البديهة والارتجال ، ومن الابتداء والاقتضاب مالا يقدر عليه حذاق رجال الراي ؛ وفلاسفة علماء البشر بيد ولا آلة ، بل لا يبلغ ذلك من الناس أكملهم خصالا واتمهم خلالا» (ج١ ص ٣٥) ثم يقول : « فأحسنت هذه الاجناس بلا تعلم ما يمتنع عنه الانسان وان تعلم ، فصار لا يحاوله اذ كان لا يطمع فيه ولا يحسدها اذ لا يؤمل اللحاق بها ، ثم جعل تعالى وعز هاتين الحكمتين والاعتبار على الاتعاظ والازدجار ، وعلى التعرف والتبين ، وعلى التوقف والتذكر فجعلها مذكرة منبهة ، وجعل الفطر تنشيء الخواطر ، وتجول باعلها في المذاهب ، ذلك الله رب العالمين ، فتبارك الله أحسن الخالقين» (ج١ ص ٣٧) ويظهر هدفه الخفي من كتابه حينما فسر قوله تعالى : « ويخلق مالا تعلمون » قال : « فليوقد من يريد أن يفهم هذه الآية ناراً ، في وسط فيضة ، او في صحراء بريّة ، ثم ينظر الى ما يغشى النار من اصناف الخلق من الحشرات والهمّج ، فانه سيرى صوراً ويتعرف خلقا لم يكن يظن أن الله تعالى خلق شيئاً من ذلك العالم ، وعلى أن الخلق الذي يغشى ناره يختلف على قدر اختلاف مواضع الغياض والبحار والجبال ، ويعلم ان ما لم يبلغه اكثر واعجب » (ج٢ ص ١١٠) ويأخذ على الذين لا يعتبرون بهذه المخلوقات فيقول : « فلو كان موقع ذكر هذه البهائم ، وهذه الحشرات . والهمج، من الحكمة والتدبر موقعها من قلوب الذين لا يعتبرون ، ولا يفكرون ولا يميزون ولا يحصلون الامور ، ولا يفهمون الاقدار ، لما أضاف هذه السور والعظام الخطيرة ، والشريفة الجليلة ، الى هذه الامور المحقّرة المستخفة والمغمورة المقهورة » ( ج٥ ص ٥٢٥ ) « فان الله قد سمى ست سور من القرآن الكريم باسم الحيوانات والحشرات وهي سورة البقرة والانعام والفيل والنحل والعنكبوت والنمل » ( ج٥ ص ٥٢٤ ) ويقول : « فاما خلق البعوضة والنملة والفراشة والذبان والجراد ففي جند اذا أراد الله عز وجل أن يهلك بها قوماً بعد طغيانهم وتجبرهم وعتوهم ، ليمرغوا او ليعرف بهم ان كثير امرهم لا يقوم بالقليل من امر الله عز وجل ، وفيها بعد معتبر لمن اعتبر ، وموعظة لمن فكر ، وصلاح لمن استبصر » (ج٣ ص ١٣٠٤) .

من كل ما تقدم نستطيع ان نستشف السبب الذي دعاه الى البحث في حياة هذه المخلوقات ، وجعلها مادة ينفذ منها الى الغرض الحقيقي من الكتاب ، يتضح هذا جليا من قوله : « فليس لقدر الكلب والديك في انفسهما وأثمانهما ومناظرهما ومحلهما من صدور العامة . . . ولسنا نقف على اثمانهما من الفضة والذهب ، ولا الى اقدارهما عند الناس ، وانما ننتظر فيما وضع عز وجل فيهما من عظام المنافع والمرافق ودل بهما على ان الذي ألبسهما ذلك التدبير ، وأودعهما تلك الحكم ، يجب أن يفكر بهما ، ويسبح لله عز وجل عندهما ، فنغشى ظاهرهما بالبرهان ، ونعم باطنهما بالحكم (ج٢ ص ١١٠٩) .

٢ ــ دعوته الى الاخلاق الصالحة وقواعد التشريع وهي التي جاء الاسلام من أجلها ، وارسى اسسها ، وحث الناس بشدة ليأخذوا حياتهم بها ، وكتاب الحيوان يحتوي على كثير من ذلك ، ففي كل صفحة ذكر لحادثة يستعبر بها وسرد لواقعة تحث على التمسك بالخلق الصالح ، والتجنب عن السوء ، وعلى سبيل المثال فقد فسر قوله تعالى : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » (ج ١ ص ١٦) فقال :

« ان المرء مسؤول عن عمله لا يُسأل غيره عنه مهما قرب . . . وقد قال الرسول (ص) : « لا تجن يمينك على شمالك » ، وذم الدين يذهبون بتفسيرها مذهباً آخر ، وعاب العرب في قولهم : « رمتني بدائها وانسلت » وقال : « ان العرب تكوي البعير السليم ليدفعوا عن السقيم عند اصابتها بالعرّ ، فاسقموا الصحيح من غير ان يبرئوا السقيم ، وينقل ان المسلمين جميعاً عابوا قول زياد :

« لأحملنّ الولي بالولي والسميّ بالسميّ والجار بالجار » ولم يختلفوا في لعن شاعرهم :

اذا اخذ البريء بغير ذنب
تجنّب ما يجاذره السقيم

وتناول في كتابه كثيراً من تلك الاخلاق ، كالصدق والامانة ، والعطف على المحتاج والتعاون واصول البيع والشراء والمواريث والمعاملات ؛ وحكم الاسلام في الرجوع عن الهبة واصول الزواج على أسس من التشريع الاسلامي ، وتحريم الخصاء.

٣ ــ رد على الانبياء الكذابين ، وكشف حيلهم : وفي هذا دفاع عن نبوة رسول الله محمد (ص) : فقد ذكر بعض تلك الحيل التي كانوا يؤدونها امام الناس ليرهبوهم فيوقعوهم تحت سيطرتهم . من اولئك الانبياء مسيلمة الكذاب ، فقد ذكر انهم كانوا ياتونه بالبيضة فيطيلها امام اعين الناس ثم يضعها في زجاجة فتعود الى حالتها من الصلابة . ومنها كانوا ياتونه بحمامة مقصوصة الجناح فكان يمكنها من الطيران ، اذ كان يكسوها ريشاً فتطير ، وكان يقول : ان الملائكة تنزل اليه وهي ذات اجنحة ولنزولها زجل وخشخشة وقعقعة ، وكان يامرهم اذا سمعوها ان يدخلوا دورهم ، فان من تامل اختلف بصره . ويعلل الجاحظ هذا فيقول : اما البيضة فانه اذا صب الخل عليها امتدت ولانت قشرتها ، فاذا ما ذهب تاثير الخل عادت الى حالتها من الصلابة . واما الحمامة فكان ياتي الى حمامة اخرى فينزع ريشها ويصنعه في اصول الريش المقصوص فتتمكن تلك من الطيران فتطير .

واما خشخشة الملائكة فانه كان يعمد الى راية من رايات الصبيان ويعلق في صدرها الجلاجل ، ويرسل يوم الريح ليلا وعندما يسمعها الناس يتنادون من دخل بيته فهو آمن (ج ٤ ص ٤٧٦) .

٤ ــ ذكر الفرق الاسلامية وغير الاسلامية ، وناقش آراءها كثيراً مفندا ما كان مخالفاً منها لمباديء الاسلام مخالفة كلية ، ومعارضاً لما يرى انه مخالف لما يعتقده هو ، ذكر المانية وذكر الدهرية وكفرهم وسخر منهم قال . عن الدهري مثلا : « قد علم الدهري اننا نعتقد ان لنا رباً يخترع الاجسام اختراعاً وانه حي لا بحياة ، وعالم لا بعلم ، وانه شيء لا ينقسم ، وليس بذي طول ولا عرض ولا عمق وان الانبياء تحيي الموتى ، وهذا كله عند الدهري مستنكراً » (ج٤ ص ٩٠) .

ويأخذ عليهم عدم ايمانهم بالله ، لان الدهري : «ليس يرى ان في الارض ديناً او نحلة او شريعة او ملة ؛ ولا يرى للحلال حرمة ولا يعرفه ، ولا للحرام نهاية ولا يعرفه ، ولا يتوقع العقاب على الاساءة ، ولا يترجى الثواب على الاحسان » « بل يرى انه والبهيمة سيان » (ج٧ ص ١٣) ورد على المجوسي الذي قال : ان محمداً (ص) ارسل الى مكة فقط . قال : « انه مبعوث الى الاحمر والاسود والى الناس كافة وقد قال تعالى : « قل يا ايها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً » وقال : « نذيراً للبشر » (ج ٥ ص ٧٠ ، ٧١) .

وذكر من الفرق الاسلامية الخوارج وكتابه حافل بمناقشاتهم وذكر المعتزلة واكثر من بث مبادئهم في مواضع عديدة من كتابه ، فقد ذكر على سبيل المثال خلاف الفرق الاسلامية في مسالة : هل ان اطفال المشركين يدخلون النار ؟ واستعرض اقوالهم فيها ، فقال : ويزعم بعضهم : ان الله عز وجل انما عذب اطفال المشركين ليغم بهم آباءهم ثم قال المتعاقلون منهم : بل عذبهم لانه هكذا شاء ، ثم يخلص الى القول ان اطفال المسلمين والمشركين كلهم في الجنة (ج ٣ ص ٣٩٤) وذكر خلاف هذه الفرق بالفاسق مجيداً رأي المعتزلة فيه لانه احد شيوخها ، ومن مبادئهم التي ذكرها :

ا ــ الاستطاعة قبل الفعل : مستنداً في تفسيره لهذا الى القرآن الكريم قال تعالى :

« قال عفريت من الجن انا آتيك به قبل ان تقوم من مقامك واني عليه لقوي امين » (ج ٢ ص ١١٠) .

ب ــ الشك واليقين : قال : « وبعد هذا فاعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة له ، لتعرف مواضع اليقين والحالات الموجبة له ، وتعلم الشك في المشكوك فيه تعلماً ، فلو لم يكن في ذلك الا تعرف التوقف ثم التثبت لقد كان ذلك مما يحتاج اليه » (ج ٦ ص ١٥) .

ج ــ الكمون : قال : « ان النار كامنة في الحجر ، وفي دهن السراج كما يكمن الدم في الانسان والعصير في العنب والزيت في الزيتون » (ج٥ الصفحات الاولى ) .

د ــ الجزء الذي لا يتجزا قال : » ان اقل الاجسام الذي تركيبه من ثمانية اجزاء لا تتجزا او ستة اجزاء لا تتجزا » (ج ٥ ص ٥٥) .

فالكتاب في اطاره العام قصد منه الدعوة الى مبدا يؤمن به مؤلفه واتخذ من الحيوان سبيلا يدخل منه الى غرضه الحقيقي ، وظلت هذه النزعة تسيطر عليه ، وبقيت اسس هذه النزعة واضحة في هذا الكتاب منها :

ا ــ الدعوة الى الايمان بالله ، كان يدعو الى ذلك عن طريق الترغيب والترهيب وذكر الزواجر والنواهي ، ليحث الناس على هذا الايمان ، مبينا ان

ذلك يعود عليهم بالخير في دنياهم ، محذرهم ممن لا يؤمن به قال : « واحترس كل الاحتراس ممن لا يراقب الله عز وجل ؛ فانه لا يخلو من أحد امرين: اما ان يكون لا يعرف ربه مع ظهور آياته ودلالاته وسبوغ آلائه ، وتتابع نعمائه ، ومع برهانات رسوله وبيان كتبه ، واما ان يكون به عارفاً وبدينه موقنا وعليه مجترئا وبحرماته مستخفا ، فان كل بحقه جاهلا فهو بحقك أجهل ، وله أنكر ، وان كان به عارفاً وعليه مجترئاً فهو عليك اجسر ، ولحقوقك أضيع ، ولايادیك أكفر » (ج٣ ص٣٠٢ ) .

٢ ــ معالجته أمور دنيا الناس على أسس من فهمه للاسلام فقد ذكر امورا كثيرة حرمها الاسلام وساق الآيات والاحاديث في تحريمها ، وفي الكتاب أمور عديدة منها ، الا انه كان يعلل سبب تحريم الاسلام هذا وتحليله ذاك فقد قال في قتل الحيوان مثلا « وقالوا قد امرنا بقتل الحية والعقرب والذئب والاسد على معنىً ، ينتظم معينين : الامتحان والتعبد بفكر القلب وعمل الجارحة ، لا على وجه الانتقام والعقوبة » مستنتجاً منها القاعدة الشرعية « وامرنا بضرب الباغي بالسيف اذ كانت العصا لا تغني فيه على جهة الدفع وعلى جهة العقاب » (ج١ ص ٣٠٧) .

والعقاب عقابان : فعقاب آخرة وعقاب دنيا ، فجميع عقاب الدنيا بلية من وجه ، ونعمة من وجه، ان كان يؤدي الى النعمة وان كان مؤلما ، فهو عن المعاصي زاجر وان كان داخلا في باب الامتحان والتعبر مع دخوله في باب العقاب والفعة اذ كان زجراً وتنكيلا لغيره ، وقد كلفنا الصبر عليه ، والرضا به ، والتسلم لامر الله فيه ، وعقاب الاخرة بلاء صرف وخزي بحت ، لانه ليس بمخرج منه ولا يحتمل وجهين .. وذكر أن الحسن البصري شهد بعض الامراء وقد تعدّى في اقامة الحد ، وزاد في عدد الضرب ، فكلمه في ذلك فلما رآه لا يقبل النصح قال : اما انك لا تضرب الا نفسك ، فان شئت فقلل ، وان شئت فكثرْ » (ج ٥ ص ١٠٠) .

٣ ــ اكثر من ذكر الآخرة ، وان الانسان مبعوث معه الطير والحيوان يوم القيامة قال تعالى : « وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا امم امثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم الى ربهم يحشرون » قال « فالكلمة في الحشر مطلقة عامة ، ومرسلة غير مستثنى منها ، فاوجب في عموم الخبر على الطير الحشر » (ج٧ ص ٤٥) .

اما الهدف الثاني من الكتاب وهو اهتمامه باللغة العربية ، فبيانه واضح جلي فقد حث كثيرا على تعلمها ، واهتمام الناس بها لاهتمامهم بالقرآن ، ومن لم يفهم العربية لم يفهم احكام القرآن قال : « فللعرب امثال واشتقاقات وابنية ، وموضع كلام ، يدل عندهم على معانيهم وارادتهم ، ولتلك الالفاظ مواضع اخر ، ولها حينئذ دلالات فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب والسنة والشاهد والمثل ، فاذا نظر في الكلام ، وفي ضروب العلم ، وليس هو من اهل هذا الشأن هلك واهلك » (ج١ ص ١٥٣) ، وكان لهذا ينتقل في استشهاداته من القرآن الى الحديث الى القول الى الشعر قال : « واقلبك منه في الفنون المختلفة ، فاجعلك لا تخرج من الاحتجاج بالقرآن الكريم الا الى الحديث المأثور ولا تخرج من الحديث ، الا الى الشعر الصحيح ، ولا تخرج من الشعر الصحيح الطريف ، الا الى القول في طرف الفلسفة والغرائب التي صحتها التجربة» (ج ٥ ص ١٥٥) .

وبعد فان كتاب الحيوان ليس بحثا في دقيق حياة هذه المخلوقات فحسب ، بل تعداه الى اغراض عديدة ، وكان وسازال وسيظل معينا ثرا ينهل منه العلماء والادباء ، وشارك مشاركة كبيرة في الحفاظ على لغتنا سليمة فقد عبر عن امور كثيرة قد لا نجدها في كثير من المعجمات اللغوية ، ليثبت من وراء ذلك أن لغتنا تستطيع ان تستوعب كل فن وتستجيب لكل حادث وتعبر عن كل غرض اوضح تعبير .